

ارتدادات ثورة 1917 على بلاد الهامة أو المؤامرة على البشير بن سديرة

الهادي غيلوفي : باحث تونس

الملخص: التاريخ يكتبه المنتصرون لا ريب أن هذه المقولة ما زالت تحتفظ بالكثير من ألقها وراهنيتها رغم قدمها النسبي، ومن ثم فإن الباحث المتقصي لا يعدم أدلة وقرائن للبرهنة على مدى صحتها ونفاذها.

إن قراءة ولو سريعة في صحائف التاريخ البشري، وفي ذكريات الأمم البعيدة منها والقريبة تجعلنا نتأكد أنه تعايش في كل الأزمنة وعند كل الشعوب تقريبا، تاريخان أما الأول فرسمي، وهو السائد والمعروف، تألف أبطاله من السادسة والقادة العسكريين والنوابغ في شتى المجالات ونحوهم، وحفلت به مختلف المصنفات التاريخية والكتب المدرسية وغيرها، وروجت له وبسطته وسائل الإعلام بجميع أنواعها وحملت شوارع المدن وميادينها العامة أسماء رموزه.

أما التاريخ الثاني فشعبي⁽¹⁾ أبطال هذا التاريخ من متمردي الأرياف من الفلاحين الذين استطاعوا أن يحفروا أسماءهم في الذاكرة الشعبية إن هؤلاء العصاة من أبناء الطبقات الشعبية والذين ظلموا أجباء وأمواتا يتقدمون الصفوف ويقدمون آيات في روح التضحية وكران الذات والذود عن حياض الوطن.

مقدمة :

"في بلادنا ظهر مقاومون على عهد الحماية أهملتهم ذاكرة التاريخ ولكن ذكراهم وأسماءهم ظلت قائمة في الضمير الشعبي مستقرة في وجدانه، وقد شكلت قصص هؤلاء الرجال وإخبارهم الأسرار الوحيدة لسكان الأرياف حتى وقت قريب.

ومن المعروف أن تلك القصص وهاتيك الأخبار تنوقلت بشيء من المبالغة السابقة بحيث تضخم هؤلاء "الأبطال" الذين كانوا مثال إعجاب الناس حتى بدا بعضهم في بعض المرويات المرددات وكأنهم "عكاز العاجز وسيف المظلوم"⁽²⁾.

هذا ما ذهب إليه فتحي لبيسر في مقدمة كتابه من الصلابة الشريفة إلى البطولة الوطنية ولا بد من الإشارة بمجهود هذا المؤرخ الذي ينتمي إلى الجيل الجديد من المؤرخين وهو أول من قام بمحاولة دراسة هؤلاء الصعاليك الشرفاء كما يحلو لهم أن يسميهم وذلك في محاولة منه إلى كتابة تاريخ غير التاريخ الذي تعودنا دراسته ويمكن أن نطلق عليه "التاريخ يجب أن يكون" ولعلنا نتقدي باليسير في هذا التوجه إذا أن سيرة هؤلاء معرضة للتلف وعدم التدوين باستثناء ما

قام به المنغرافي محمد المرزوقي لم نلاحظ أية اهتمام من طرف المؤرخين الرسميين للدولة الوطنية لهؤلاء ولا نعلم عن تاريخنا الوطني سوى تاريخ الزعيم في بورقيبة وهناك تغييب شبه كامل لتاريخ الأبطال وان ذكر وفي بعض الكتابات يكون بشكل خجول وهذه الدراسة تندرج ضمن محاولة متواضعة لتنشيط الذاكرة الوطنية لان الحفاظ عن الذاكرة الوطنية مسألة مهمة بالنسبة لكل باحث ينتسب هذا الوطن، ولكن ثمة فرق بين تنشيط الذاكرة ودغدغتها وبعبارة مجملية نقول نحن مع إحياء الذاكرة وتنشيطها ولكننا ضد الدغدغة والتوظيف الفج لهذا التراث النضالي لان في ذلك إساءة للتاريخ ولهذه الشخصيات في آن معا⁽³⁾.

سوف نحاول تناول سيرة البشير بن سديرة من خلال استخدام بعض الوثائق التاريخية التي عثرنا عليها في الأرشيف الوطني وهي مهمة إلي حد بعيد في كشف بعض الحقائق التاريخية من حيث إدانتها للمستعمر الفرنسي وبعض القياد اللذين دبروا مؤامرة اغتيال بن سديرة بعد إن فشلوا في الإيقاع بهي في ساحة المعركة لما تميز بهي من إتقان لفنون القتال وسرعة الحركة لذلك عمدوا إلي الإيقاع بهي عن طريق الخيانة والمؤامرة مستخدمين بغض أصحاب النفوس الضعيفة طمعا في المال والجاه ولكن التاريخ لا يرحم حيث وضع البشير بن سديرة في مقام الإبطال ووضعهم في مصاف الخونة. بالإضافة إلي الوثائق سوف نعتمد علي بعض الروايات الشفهية القليلة التي دونها محمد المرزوقي وذلك من اجل المقارنة بين النصين الشفوي والوثيقة التاريخية اعتقادا منا بان الوثيقة مقدسة أما الرأي فمجانبي فهي مقدسة حيث لا يمكننا أن نغير فيها شيئا لكننا يمكن أن ننقدها علي اعتبار ان مصدرها غير محايد

1 - البشير بن سديرة الإنسان؟ أو سيرته الذاتية :

ولد البشير بن سديرة سنة 1892 وتربى في مضارب قومه أولاد عبد الكريم بمعتمدية السند... وفي بداية الحرب العالمية الأولى 1914 استدعى للجندية، فالتحق بالجيش الفرنسي غصبا وحول إلى حامية مدينة القيروان ولم يمض عليه هناك شهران حتى لاستطاع الفرار بسلاحه (إلى جبال جلاص، وتنقل بين الغابات والجبال حتى وصل إلى جهته، واستقر في الجبال المجاورة لقفصه، وكان ينتقل أحيانا إلى جهة جبال مطماطة، وذلك اثر خلاف نشب بنيه وبين ضابط فرنسي⁽⁴⁾.

هذه هي سيرة البشير بن سديرة كما أوردها محمد المرزوقي في كتاب دماء على الحدود ويقول انه استقى قصة حياة بن سديرة من روايتين شفهييتين لكل من روائي جلول ومحمد بن نصيب دون أن نذكر مدي صلة القرابة بيت أصحاب الرايتين والبشير بن سديرة يقول أنه الروايتين لم نقلهما مباشرة بل عن طريق السيد أحمد عرفة سنة 1966 أي أن تدوين الروايتين يعود إلى السيد عرفة لا للمرزوقي الذي نقلها كما وردت إليه.

لم نجد رواية مخالفة لما أورده المرزوقي فالظاهر الهامي في مقاله⁽⁵⁾ بعنوان البشير سديرة ينتقل نفس رواية المرزوقي رغم انه أصيل تلك المنطقة وكان بإمكانه تدوين سيرة بن سديرة مباشرة لا نتوقف كثيرا عند نقد هذه الروايات فتاريخ ولادة البشير بن سديرة إن كان 1892 أو 1895 لا يغير شيء وكذلك تاريخ انتسابه للجندرية وتاريخ فراره ولكننا لا بد أن نلاحظ أن البشير بن سديرة كغيره من المئات من المجندين التونسيين قد فروا من الخدمة العسكرية لعدة أسباب لعل أبرزها عمليات التجنيد الإجبارية وسوء المعاملة وارتفاع عدد الخسائر في صفوفهم وهذا ما يفسر عمليات التمرد الهائلة التي قام بها المجندون التونسيين في صفوف الجيش الفرنسي وتمرد البشير سديرة يندرج ضمن إطار تمرد عملية تمرد عامة ضد التجنيد الفرنسي خاصة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وتكثف ظاهرة التجنيد القسري وعنصرية الفرنسيين تجاه الوحدات المتكونة من عناصر تونسية إضافة ولعل هذا هو الأهم رفض التضحية بالنفس من أجل خدمة المستعمر للمحافظة على إمبراطورية، ولقد ارتبطت أيضا بالمقاومة العنيفة التي واجه بها الليبيون الغزو الإيطالي سنة 1911 وتواصلت إلى حدود 1920 بشكل كثيف والتي كان من بين قادتها خليفة بن عسكر وفي ظل هذا المناخ الثوري العام تكاثفت حركة العصيان والتمرد داخل الجيش الفرنسي من قبل التونسيين⁽⁶⁾.

في هذا الجو المشحون بالإرهاب والإعدامات التي مارستها السلطات الاستعمارية الفرنسية تجاه التونسيين منذ بداية الحرب العالمية الأولى لم يكن أمام الوطنيين التونسيين سوى تفضيل الموت بشرف ورجولة من أجل الوطن عوضا من أجل العلم الفرنسي.

في هذا الإطار يمكننا قراءة حادثة فرار السيد بن سديرة ومحمد الدغباجي وغيرهم من أبناء هذا الوطن الذين شكلوا هاجسا للسلطات الفرنسية في فترة العشرينات مما دفع هذه السلطات إلى مطاردتهم وفضلوا حرب العصابات بدل المواجهة المباشرة فقد جمع بن سديرة من حوله مجموعة من المطاريد أمثاله ليقوم بعمليات الإغارة في جهات متعددة من الجنوب التونسي امتدت على منطقة جغرافية متصلة وهي مناطق الهامة والأعراس ونفزاوة والجريد والقيروان متحصنين بالجبال وكانوا في حرب وجود مما دفعهم إلى الإغارة على العديد من العروش من أجل توفير قوتهم اليومي وكانوا في بعض الأحيان يجبرون على إطلاق النار من أجل الدفاع عن أنفسهم لأنهم لم يكونوا مع في خصومة مع الأهالي لكنهم لم يتوانوا في قتل كل من يحاول مقاومتهم سواء كانت قوات فرنسية أو صبايحية وحتى بعض أفراد العروش التي يغيرون عليها.

حاولت السلطات الاستعمارية في البداية القضاء عليهم معتمدة على قواها الذاتية في جيش فرنسي وصبايحية غير أنها بعد أن فشلت في تحقيق هدفها عن طريق هذه القوات مما اضطرها إلى تجنيد الأهالي والتزمت المشايخ بجمع المتطوعين لمواجهة هؤلاء العصاة في نظرها وان اختلفت آراء سكان المنطقة من حركة البشير بن سديرة من مؤيد ورافض

وتختلف المواقف أما نتيجة تضرر البعض من أعمال البشير وجماعته التي طالت كما ذكرنا العديد من العروش التي أغار عليها ووقعت إصابات بين الطرفين أدت إلى مقتل أفراد من هذه العروش فيما جعلها تساند السلطة إما بمدها بالرجال أو بالأخبار عن تحركات البشير بن سديرة وعن من يسانده من المشايخ والأعيان من أجل عقابهم ففي رسالة موجهة إلى الوزير الأكبر محمد الطيب الجلوتي من طرف عدلين من الدوالي مؤرخة بتاريخ 31 أكتوبر 1919 يطالبون فيها الوزير باتخاذ الإجراءات الحازمة من أجل القبض على البشير المذكور وأربع رفاق له لان عرشهم تعرض للإغارة من قبلهم يوم 28 أكتوبر جرح في الحادث أقاربهم و محمد الصغير بن محمد بن علي والمدعو بلقاسم بن محمد بن صميحة وقد تمكنوا من سرقة الثياب ونهبوا سبعة جمال لم يتمكنوا من إرجاعها رغم الفرع الذي وقع ومرد ذلك حسب الرسالة إلى استخدام المجموعة لأسلحة متطورة تدعي الموزر يحصل عليها من قبل أشخاص يساندونه وتقول الرسالة "حيث أن لهم بنادق بعيدة المدى التي تعرف بالموزر يأتون بها من عمل الأعراس وغيرهم الشيخ كان الخودي من أحد مشيخة نفات عمل الصخرية والمهاذبة حيث هذا له معرفة بنصر حارس بجهة مدنين وتم بطريقتة ومنها سيثريها الجناة من عرش أولاد عزيز من خلافة المكناسي عمل الهمامة عن طريق الشيخ أحمد السفلي شيخ أولاد مبارك والشيخ عثمان بن محمد بن علي الأسود وشيخ البدور من العمل والخلافة أن هذا الناهب ورفاقه كان وقع منحهم النهب بجهة أولاد رضوان بقمودة بنواحي سيدي بوزيد المرار العديدة ثم اغتصاب النساء والعرض لا تزال عنده إلى الآن وكان في المدة الفارطة أوائل الجاري أمر جناب السيد عامل الهمامة بإحضار جميع أهالي العمل مع الفرسان الذي عينهم جناب المراقبة بقفصة للقبض على الجاني المذكور وغيره ونفس عدد 500 ونزلت بمركز خلافة المكناسي النازلة بقربة الجاني المذكور بجبلي هداج وبوهدمة مع المشيخات الضالين له من أولاد عزيز وطلب العامل أن تاتوا له بالجاني أو يتحملون بنزول جملة الخيل من علفة وطعام حتى يأتوا به إذ هم الضالين له فاتوا الشيخ أحمد السقي المذكور مع غيره من أولاد غريب".⁽⁷⁾

هذه الشكوى تعتبر عن وجهة نظر خصوم البشير بن سديرة ولا بد إنها تبالغ في إدانة أولاد عزيز التي يمكن أن يكون لهم عداوة لسبب أو لآخر مع أصحاب الرسالة فهي محاولة لإدانتهم ولترحيص السلطة على هؤلاء ولعل هذا الاختلاف بين العروش تم توظيفه من قبل السلطة من أجل شق صفوف الهمامة بتجريض فريق ضد الآخر والهدف دائما "الظفر يرأس بن سديرة ورفاقه بأقل ما يمكن من الخسائر ولكننا رغم تشكيكنا في المعلومات الواردة في هذه الوثيقة لكننا نلاحظ مدى شهرة هذا الثائر المتمرد وما شكلته حركته من اهتمام لدى السلطة الاستعمارية وما ناله الهمامة من ظلم السلطة فهي مارست سياسة عقابية على الهمامة من خلال التخلي عن مهمتها في القبض على بن سديرة وأجبرت الأهالي على القيام بهذه المهمة الشاقة ومن ناحية أخرى توضح مدى تعاطف فريق من الهمامة مع ابنهم ومد يد العون له ورفضهم تسليمه للسلطة وذلك بدافع الحمية القبلية التي حاولت السلطة الاستعمارية اغتافها عن طريق إيغار قلوب البعض من الهمامة ضد أحد أبناءهم.

لا شك أن هذا الخلاف بين البشير بن سديرة وبعض عروش الهمامة يعود إلى فترة سابقة وهو ما جعله يغير عليهم دون غيرهم ولكن هذه الخلافات وهذا التجبيش من قبل العامل ضد البشير بن سديرة لم يمكنه من الفيض عليه نظر لاحتراس البشير المذكور وتحصنه بالجبال فأية محاولة للقضاء عليه عن طريق المواجهة المباشرة كان نتيجتها الفشل مما جعل العامل يعمل على اختراق عرش البشير بن سديرة مباشرة من خلال إغراء البعض من عرشه للإيقاع به عن طريق الخيانة والمكيدة.

2 - نهاية البشير بن سديرة أم مكيدة العامل نصر بن سعيد :

عرف العامل سعيد بن نصر بأنه من اخلص العمال لسلطة الحماية وهو ينتسب إلى نفاوة وهو سليل عائلة توارثت المناصب نتيجة الأعمال التي قدمتها لسلطة الحماية وان هذا العامل يتميز بالغدر والتآمر فما عجز عنه سابقه من عمال الهمامة وقفصه واستطاع هو تنفيذه من خلا تجاوزه لكل الأعراف والقوانين وذلك من أجل إثبات جدارته وتفانيه في خدمة المستعمر ولذلك لم يتوانى في فعل أي شيء من أجل الحفاظ على منصبه وتعد عملية اغتيال البشير بن سديرة من أبرز ما قام به العامر المذكور كما يدعي هو في رسالته الموجهة إلى الوزارة الأولى بتاريخ 5 جويلية 1920 والتي يروي فيها مكيدة وهذه الرسالة الوثيقة هي إدانة لهذا العامل ولسلطة الحماية التي كانت تدعي النزاهة واحترام القوانين اختيار موظفيها ولا سيما المشايخ الذين كانوا يعتبرون أعيان لعرشهم لا كموظفين وكانت الشروط المعتمدة تبدو صارمة ولكنها لا تتوانى في تجاوز القانون والأعراف إذا كان الهدف من ذلك الوصول إلى تحقيق غاية لم تتمكن من تحقيقها عن طريق استخدام إمكانياتها الضخمة والتي عجزت في القبض على البشير بن سديرة الذي أتعبها فلم توفر وسيلة للظفر به وبذلك حبك العامل نصر بن سعيد مؤامراته وشكلت شخصية المدعو بلقاسم بن محمد بن عبد الله التليجاني محور حكايات الناس وكما اعتبر البشير بطل الروايات الشعبية بصفته (بطالا) شعبيا شكلت شخصية بلقاسم المذكور والمعروف (الأقرع) صورة للخائن الجبان الذي يشكل عبئا على الهمامة لما عرف عنهم من شيم الشجاعة والإخلاص والمروءة فالتاريخ لا يرحم لان من اختار طريق البطولة غير الذي أغراه حب المال ولو نطلب منه الغدر بصديق وإذا كانت قصة الأقرع وما لها من غموض في الروايات الشعبية غير واضحة وان الأسباب الحقيقية التي دفعته للقيام بهذا العمل والرواية الشفهية التي أوردها محمد المرزوقي فيها الكثير من الحقيقة غير أنها لا بين ماهي الوعود التي وعد بها بلقاسم لتدفعه لخيانة صديقه وتقول رواية المرزوقي ما يلي ... ليلة مظلمة حوالي الساعة العاشرة من مساء أحد أيام شهر ماي 1919 كان البشير نائما في مكان خال، مطمئنا من العيون، وبجانبه كان الخائن بلقاسم الأقرع وكان محمد شقيق البشير بعيدا عن مكانهما بمسافة قليلة، فاعتنم الأقرع الفرصة وصوب بندقيته إلى صدر البشير النائم، وأطلق الرصاصة فكانت القاضية، وفر تحت ستر الظلام.

وسمع محمد بن سديرة الطلقة فخف مسرعا إلى أخيه فوجده جثة هامدة، وجرى خلف الفار وأطلق الرصاص تباعا، ولكن هيهات لقد فاتته المجرم بمسافة، وحالت دون رؤيته لستائر الليل.

أما الأقرع فقد أسرع تحت الظلام إلى محطة الارتال بالسند القريبة منه، ودخل مكتب رئيس المحطة، وقدم له نفسه، وطلب منه الاتصال بالمراقبة المدنية بقفصة وإعلامها بموت ابن سديرة، وبوجود قاتله محتميا بالمحطة، وهدف رئيس المحطة للمراقبة بالواقع فأمرته بحماية القاتل حتى تأتيه السلطة، واتبته السلطة فعلا بما فيها الجيش والأعوان والمراقب والعامل الخليفة. وأخذت القاتل تحت حمايتها إلى قفصة ووفت له بوعودها

هذه الرواية التي أوردها المرزوقي هي لردادي الذي يذكر إن حادثة الوفاة هي في ماي 1919 أما محمود بن نصيب فيجعلها. في صانفة 1920 والمسألة أي عدم تحديد التاريخ دائما ما نجدها في الروايات الشفهية لأنه يتم تداولها من شخص لآخر وتفتقر في أغلب الأحيان للدقة لأنها لم تدون من أشخاص عايشوا الحدث مباشرة ولكن بلغت مسامعهم ممن سبقوهم أما فيما يخص وعود السلطة الأقرع فالمرزوقي لا يذكرها لان لا أحد يعلمها لان حيك المؤامرة حتى لوثيقة التاريخية كانت سرية وهي بين العامل نصر بن سعيد وبلقاسم المذكور وعملية بهذا الحجم كان لا بد أن تكون سرية للغاية لان أي تسرب لها سوف يكون عامل لإفسادها فالعامل ذكرها مفصلة في رسالته الوثيقة وكان ذلك بعد انتهاءها ولا يمكن أن يذكرها قبل ذلك من أجل تحقيقها.

أما رواية العامل فيها أقرب للصحة من حيث أنها كانت عبارة عن تقرير مفصل حول الحادثة وهو موجه إلى رؤساء وجاءت بعد وفاة بلقاسم الذي كان وعده العامل بتمكينه بمبلغ من المال وقد أمده بجزء منه وبمكافئته بمصعب شيخ إذا ما تمكن من تحقيق المطلوب منه ويقول رسالة العامل ما يلي "حيث أن البشير الذي هو منشأ الارتباكات التي حدثت بالعمل وغيره وهو صاحب السيادة لدى جميع الفلاحة ولم يقع القبض عليه آنذاك رغما عن طول مدة فراره وتعبت القوة العامة وراءه وبما أن القوة العامة التي استعملت لإلقاء القبض عليه من عساكر وصبايحية وقومية لم تفد فيه ورأيت إن لا سبيل لإلقاء القبض عليه بالقوة العامة فقد استعملت كل الوسائل لرجوعه بطريقة سلمية وكان طلب مقابلي في منتصف شهر مارس الفارط وفعلا قابلية خارج بلد قفصة ووعته بتخفيف العقاب عليه كما هو وعدني بالإلقاء القبض على فلاة بني زيد حيث أن ذلك لا يصعب عليه وذهب في حاله وبعدهما وعدني بعدم ارتكاب أدنى جريمة وبمناسبة حدوث واقعه ماجل بالعباس واتهامه بارتكابها لنزوله بتلك الجهة فقد توجهت إليه مصحوب بالعساكر والقومية والفرع وحيث لم تحصل بنتيجة وكث الاتفاق وتمادى على أفعاله من نهب وقتل وشن الغارات التي دوخ بها أهالي العمل وأهالي الماشة وغيرهم ورأيت من أهالي فريقه التهاون على إلقاء القبض عليه"⁽⁸⁾.

لا شك أن العمال نصر بن سعيد حاول في لقاءه بالبشير بن سديرة الإيقاع من خلال إيهامه بأنه قادر على تخفيف الحكم عليه وهذه السياسة لجأت لها السلطة في مناسبات عديدة ومنها محاولة الإيقاع بالثائر مصباح ابريبش في منطقة بن زيد حيث تم إرسال ابن عمه لمحاولة إقناعه بتسليم نفسه مقابل العفو عنه ولكنه طلب صدور عفو في المقيم العام قبل التسليم عندما لم يحصل على العفو المكتوب استمر في ثورته فأغلب الثوار لا يثقون بالعمال والقياد لأنهم يدركون جيدا أنه لا أمان لهم لان من اختار خدمة الاستعمار والسير في ركابه لا أمان ولا عهد له.

لعل ما أروده العامل عن اللقاء الذي جمعه بالبشير بن سديرة مبالغ فيه في محاولة من العامل لتضخيم دوره وما يمكن ملاحظته في هذا الشأن هو أن البشير بن سديرة قد وعده بتسليم ثوار بن زيد والمقصود خيانة رفاقه مقابل تمتعه بتخفيف العقاب ولكنني أشك في هذه المعلومة حيث إن ثوار بن زيد والهمامة كانت تجمعهم قضية واحدة ووحدة مصير ولعل العامل هو من كان طلب من البشير بن سديرة هذا الطلب ولا نعلم ما هورد البشير ومن المؤكد إن التعاون بين ثوار بن زيد وثور الهمامة كان أحد أسباب استمرارهم نظرا لتجاور المجالين الجغرافي فكلما شنت السلطات الاستعمارية حملة على أحد الفريقين يجد الملجأ لدى الفريق الآخر.

فالعامل نصر بن سعيد يحاول إبراز دوره في هذه الواقعة ولذلك يؤكد انه استطاع بحنكته إغراء بلقاسم بن محمد والاتفاق معه على خيوط المؤامرة ويضيف قائلا "لذا استدعيت بلقاسم ابن الشيخ كان المذكور لما توسمت فيه من الثقة والإقدام. وتفاهمت معه في شأن المكيدة وهي مصاحبة البشير المذكور وتعاطي الفلاقة معه والتحيل على قتله وسلمت له مقرونا وجانب من الخرطوش وما لزمه من المال وغيره وأشعت لدى كبراء فريق البشير المذكور وعندهم بأن بلقاسم المذكور مطلوب في عدة نوازل وحكم عليه بالسجن ووجهت له شائشا وصبايحية وقبضوا عليه بسوق قفصة وجلبوه لإدارة العمل وأوعزت له بالفرار أثناء كتب مكتوب إيقافه وجنح بلقاسم المذكور للفرار وشاع لدى العموم بأن بلقاسم المذكور صار فردا من أفراد الفلاقة وركن إليه البشير المذكور وفعلا انقطع بلقاسم المذكور عن أهله وبقي يتردد على البشير ويحمل له المؤونة وغير ذلك في نحو شهرين ومن جهة أخرى شددت الأمر على أهالي فريق الوذانية الذين منهم البشير ويتردد عليهم وسلمت لهم السلاح الدولي وفي 17 من الجاري عثروا على البشير المذكور مصحوبا بأخيه الثاني يمناه (عمار) رفيقه الأخير يمناه (عمار بن التليلي المذكور مصحوبا الرضواني) ووقع تبادل طلق البنادق بين الفريقين ومات الثاني يمناه (أخوه عمار) وجرح الأخير يمناه (عمار بن التليلي) ومات الأولان يسراه (علي التليل بن محمد الأوسد الوذين) والعربي بن بلقاسم) وجرح الأخير يسراه (صالح بن حميدة بن محمد) حسب ما عرفنا جنابكم بمكتوبنا المشار إليه بطالعة هذا التقرير وفي عشية اليوم 17 المذكور كان بلقاسم المذكور مع أخ البشير الثالث يمناه (محمد) بجهة لا له ولما سمعا بالواقعة توجه الثالث يمناه (محمد) لجهة أخيه وأمر بلقاسم المذكور باللحاق عليهما بعد حمل المؤونة وعين له المكان

وهو جبل ماجورة وتوجه بلقاسم لبيت والد البشير ورفع منها الزاد وأدرك البشير المذكور وأخوه الثالث يمناه (محمد) وبعد مناولتهم طعام العشاء ليلة 22 الجاري رأى بلقاسم المذكور إن الفرصة سنجت له بمناسبة موت عضد البشير وهو أخوه الثاني يمناه (عمار) وقد رفيقه الأخير يمناه (عمار بن التليلي) وكان بالثالث يمناه (محمد) سقوط بيده ولا يخشي منه أن قتل أخاه البشير فقد تحيل على البشير المذكور وصرخ عليه وجهين نارين في أن واحد فمات لحينه فعمد الثالث يمناه (محمد) وصرخ على بلقاسم المذكور إلى أن الصرح لم يصيبه ثم وقع بينهم تضارب ثم جنح الثالث يمناه (محمد) للفرار وقد أوتي بالقتيل البشير المذكور لأفار السند وتوجهت إليه ثم أوتي به بقفصة حيث دفن عشية 23 من الجاري وحيث إن بلقاسم بن الشيخ كان محمد بن عبد الله المذكور قام بما أنيط بعهدته خير قيام بقتله البشير المذكور الذي عاث في الأرض فسادا وشوش الراحة العامة ويقتله انقطعت جرثومة الفساد وعاد الأمن لربوعه حيث كنت وعدت بلقاسم المذكور بتسميته شيخا على فريقه أن قتل البشير المذكور زيادة على الفرقات 5000 التي وعد بها جناب الدولة لقاتل البشير المذكور فإني أرغب من الجناب تسمية بلقاسم المذكور شيخا على مشيخة أولاد شريط التي كان والده شيخا عليها وعلى العمل بمكتوبنا عدد 470 والمؤرخ في 24 جوان 1920 الذي انهينا به نتيجة انتخاب المشيخة المذكورة كما أني استلقت أنظار جنابكم للسامي لأولياء القبيلتين الأولين سيراه (علي التليلي بن محمد الأسود الوكيني والعربي بن بالقاسم) الذين ماتا في سبيل المصلحة العامة بإصدار إعانة مالية نظرا لفقر أوليائهما كما في سراه ونلحظ لجنابكم أن مسألة الفلاحة ختمت بقتل البشير المذكور وانقطعت من تراب عملنا بكيفية تامة والله الحمد ودمتم بعز إليه ويبقى وجودكم والسلام على معظم قدركم الأسمى فقير به نصر بن سعيد عامل قفصة⁽⁹⁾

هذه هي رواية عامل قفصة (بطل) مأمرة اغتيال البشير بن سديرة والتي ذهب ضحيتها البشير سديرة وسقط فيها قتيلين من الوذائنة بعد أن غرر بهم العامل المذكور أو دفعهم لمواجهة ابن عمهم وأغرى فيها بلقاسم المذكور واعداء إياه بمنصب شيخ جزاء له عن ما قام به ولكن بلقاسم المذكور ارتكب خطأ فادحا عندما قتل البشير أمام أخاه محمد الذي لا يمكن أن ينسى له هذا الفعل الشنيع ولن يتوانى في انتظار الفرصة المواتية للأخذ بثأر وأخيه وهذا الرد لم يطل طويلا فلا يمكن لبلقاسم المذكور أن ينعم بالحياة الآمنة لأن السلطة لن توفر له جيشا لحمايته حيث تمكن محمد بن علي بن سديرة من الثأر لأخيه في 19 نوفمبر 1920 وبذلك حرم بلقاسم المذكور من التمتع بالمنصب الذي وعد به وبالتالي دفع حياته ثم جشعه وحقق للسلطة ما عجزت عن تحقيقه بكل الوسائل العسكرية وجر على أهله المهانة وترك أبناءه دون كفيل.

تجمع الروايات الشفهية التي أوردها المرزوقي على إن محمد بن سديرة ظل يراقب الأقرع عن طريق بعض الجواسيس من عرشه الذي تنادوا بالثأر لابنهم ورغم تخوف بلقاسم واحتياطاته غير أن أولاد عبد الكريم تمكنوا منه

ويقول المرزوقي ما يلي "بقي الحقد يغلي في صدور بن همام الأشاوس على قاتل ابنهم وحبیبهم البشير بن سديرة، ونادى شبابهم وشيوخهم ونساؤهم الثأر لا بد من الانتقام من الأقرع الخائن خادم الفرنسيين، ولكن كيف الوصول إلى الأقرع الذي يعيش في رعب وتحت حماية الفرنسيين فهو لا يكاد يتخطى الطريق الموصل من منزله المحروس إلى (القهوة العالية) بقفصة وكان دائما مصحوبا ببعض الحراس المكلفين بحمايته، سواء في الطريق أو القهوة، وكان يحمل معه السلاح، ومن حراسه أخوه صالح، وكان الاتصال مستمرا بين المراقبين للأقرع من أولاد عبد الكريم أبناء عم البشير، وبين أخيه محمد المتمرد، والذي عاش بعد موت أخيه متنقلا، تطارده السلطة بين الجبال ماجورة وعرباط وسيدي عيش، والعنق، حتى وصلتته الأنباء الدقيقة عن سيرة الأقرع قاتل أخيه، وعن تنقلاته وبذلك رسم الخطة للانتقام، ونفذها⁽¹⁰⁾.

وهذه الرواية طبعا "تؤكد أن رغم الحماية التي كانت توفرها السلطة الاستعمارية ورغم الحذر وحالة الرعب التي كان يعيشها بلقاسم المذكور لم يتمكن من الإفلات من مصيره المحتوم نظرا لعدم نسيان محمد لمشهد وفاة أخيه غدرا من قبل بلقاسم المذكور الذي استأنس به محمد واعتبره صديقا لكنه غدر بأخيه وهذا القدر لا يمكن أن ينساه محمد وبذلك أصر على الانتقام من الأقرع لكي يشفي غليله وهو في كل الحالات مطارد سواء قتل الأقرع أم لا لأنه قبل ذلك شارك أخاه التمرد لذلك فضل المجازفة بحياته ودخل إلى قفصة وانتقم لأخيه.

3- آثار عملية اغتيال البشير بن سديرة الإنسانية :

شكلت عملية اغتيال البشير حدثا كبيرا لا سيما إن قاتله هو من أبناء جلدته الهامة واعتبر صديقا له ولذلك خلقت عملية الاغتيال وأثار مأساوية على عائلته وقد تعرض والده قبل وبعد وفاته التي شتى أنواع العذاب إذ كانت السلطة لا تتوانى في إيقافه وسجنه من أجل الضغط على ابنه لتسليم نفسه ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال الرسائل العديدة التي كان يرسلها والده علي بن سديرة معلنا فيها تبرئته من ابنه الذي اعتبره في عدة رسائل بالضال والمجرم ولذلك من أجل إثبات عدم اعترافه به ففي رسالة مؤرخة في 1333 هـ 1916 ميلادية موجهة من علي بن سديرة إلى الوزير الأكبر يؤكد فيها عن حالته من جراء أعمال ابنه وتعرضه لسجن يقول "إن المذكور أعلاه (البشير) ابني وحيث هو عايق ولما بلغني منه أضرار وكثير ما تجاها عني تبريت منه على يد عدلان بنفات وجعلت في ذلك حجة عادلة منذ خمسة أعوام تقريبا فارطة وذلك قبل دخوله الخدمة العسكرية ومن أجله فارقت والدته وذلك قبل دخوله الخدمة العسكرية وياشر الخدمة فر من الجندية وطلبني فيه المدعي عامل قفصة فأعلمته بالحالة فلح عني صرت أبحث عنه وجعلت كل الوسائل فساعدتني المقادير على القبض عنه فمكنته لإدارة عمل قفصة ثم أعاد ثانيا فر ولما طلبت فيه فلم تساعدني المقادير على قبضته وتمرد فكان أمر السيد عامل قفصة سجنني 34 يوما والآن أطلق سبيلي من السجن وضمن في السيد عامل قفصة في هذه أيام عشر بن تأتي به... وليس لي قدرة عليه أن المذكور أعلاه هو أحد شياطين الأونس ويصدق دعوي

الحجج التي ذكرتها لكم من قبل دخوله للعسكر وليس أنا بمتصنع ومع ذلك أنا إنسان ضعيف البصر لا أقدر على ذهابي للطرق البعيدة... بطلب من الجناب (وصاية) السيد العامل لان السجن أتعبني»⁽¹¹⁾.

إن هذه الرسالة تعتبر فعلا في معاناة ولد البشير بن سديرة الذي يتعرض كل مرة إلى الضغط والسجن والتعذيب نتيجة أعمال لا دخل له فيها وهو مطالب كل مرة بالقبض على ابنه الذي لا سلطة له عليه هذا الابن الذي تمرد على السلطة ولم تستطيع القبض عليه فما هو ذنب والده.

هذه السلطة التي عجزت عن الإيقاع به ورغم وجود اتصالات بينه وبينها غير أنها لم تكن تهدف إلى الإيقاع به وما يؤكد وجود اتصالات بين البشير بن سديرة والسلطة ما أورده تقرير العامل سعيد بن نصر حول عملية اغتيال البشير المذكور وما يؤكد هذا الرسالة والده المؤرخة في أوت 1920 بعد وفاة ابنه وهو يذكر بعض المجريات التي أخفاها العامل سعيد بن نصر حيث أكد السيد علي بن سديرة بأن ابنه قبل تسليم نفسه وقد أكد والده بأنه قابل العامل المذكور وعرض عليه تسليم ابنه وفعلا قابل الوالد ابنه وعرض عليه الأمر ولكنه طلب مهلة وبعد ذلك ابدي البشير حسب قول والده تسليم نفسه إلى عامل جلاص محمد الزواري لكن العامل سعيد بن نصر أراد قتل ابنه حيث يقول عن العامل سعيد بن نصر أنه أحضر أعيان الوذانية وشدد عليهم الطلب وأمهلم مدة شهرين ويأتوه به وأثناء الأجل المذكور سلم لهم السلاح وأمدهم بأن يحملوه قوة مع البشير من معه فعلوا موطننا كبيرا مات فيه نفر من الوذانية ومات فيه ابني عمار ونفرين من أولاد يوسف وكما صار منه ذلك يقلق ابن البشير وأراد أن يسلم نفسه عن طريق السيد محمد الزواري عامر اجاص فيبلغ الخبر السيد عامل قفصة لمذكور فأغرى عليه بلقاسم بن محمد التيجاني واكتراه في 4000 فرنكات فقتله نائما فان كان الأمر من جناب الدولة السمع والطاعة وإذا كان هذا عن إذن السيد العامل فنطلب البحث يجري عن طريق السيد المراقب امدني»⁽¹²⁾.

إن علي بن سديرة والد الشهيد البشير وعمار والذي كان على علم بمجريات الأحداث لديه شك كبير بأن ابنه قتل نتيجة التنافس بين عامل قفصة سعيد بن نصر وعامل اجلاص محمد الزواري فكل عامل أراد أن يثبت جدارته فإذا كان البشير لديه شكوك في عامل قفصة بأنه لا أمان له وذلك بعد أن اجتمع به أدرك حقيقة نوباه ولذلك عمل على الاتصال بعامل جلاص محمد الزواري حسب رواية والده وهو أكثر الناس علما بما يجري وخاصة أنه كان على اتصال به بطلب وضغط من عامل قفصة ولعل ابنه أخبره عن شكه في نية عامل قفصة وعندما علم هذا العامل من نية البشير تسليم نفسه لعامل جلاص عمل بكل الوسائل من أجل عدم تحقيق نصر لعامل جلاص وسعى للإيقاع بالبشير وذلك بتجنيد الوذانية ضده ومدهم بالسلاح وعندما فشلوا في تحقيق ذلك واستطاع البشير هزيمتهم عمل عامل قفصة سعيد بن نصر إلى استعمال

المكيدة ضده وتمكن من قتله غدرا لكي يثبت جدارته وخاصة أن كل العمال الذي سبقوه والعمال المجاورين فشلوا في تحقيق هذا الهدف.

ولكننا إذا كنا ننظر للأبطال نظرة إعجاب وافتخار لا يمكن أن نغفل الجانب الإنساني في ما يحدث لهؤلاء فعائلة علي بن سديرة دفعت الثمن غالبا ابتداء بإخوته عمار ومحمد الذين قتلوا أحدهم قبله والآخر بعده ووالده ووالدته عاش التجربة بكل مرارة فوفاة ثلاث أبناء ليس بالأمر السهل ووالده الذي كان يعمل لإنقاذ ابنه من خلال الاتصال به ومحاولته إقناعه بتسليم نفسه أدرك خيوط المؤامرة التي نسجها عقل العامل سعيد بن نصر ولم تتوقف مأساة علي بن سديرة عند هذا الحد ولكن المضايقات والأذى استمرت حتى بعد وفاة أبناءه عمار والبشير وسجن ابنه محمد الذي سوف يتعرض في السجن حيث أنه تعرض للمضايقة والتنكيل حسب ما ذكره في رسالة شكوى إلى الوزير الأكبر مصطفى ذنفرلي مؤرخة بتاريخ 31 ماي 1922 أي بعد وفاة ابنه البشير بثلاث سنوات حيث يقول أنه لما كان وقع قتل ابني المسمى البشير وسجن ابني محمد الآن بحبس تونس عزم كامل الناس على التنكيل مني بكافة أنواعه بدون أدنى ذنب صدر مني رغما كوني بلغت سن الهرم وقليل النظر ونصف المذكورين يميناه وبقية من معهم فأول من صنعوه هو إعاقة الأول منهم (نصر بن محمد العايب الكريمي) على الفرار فأول يسراه (حسنية بن أحمد بن نصر الكريمي) زوجة ابني محمد المذكور وقد عرضت نازلة على المجلس العدلي بقنصة مما ساعد الجاني إلى الالتجاء تحت جناح خليفة السند حسونة بن علي بن نصيب وكلما يصدر التنبيه بحضور الأول يجيب بمغيبية والحال انه لم يتغيب بالمرّة ما كثر بخيمته والمرأة محجوزة تحت نظره ولا زالت بصدد هذه النازلة وما شعرت ألا وأنهم أغروا النفر الثاني يميناه (مصباح بن زياني) على الفرار بابنتي الثانية (زينة بنت علي بن سديرة) وفعلا فربها ولما عرضت النازلة على خليفة السند المذكور لم يقم بالواجب في إجراء البحث في النازلة بل ما كان جوابه الا لا إلا أن الإبل عند ضياعها ما ترجع إلا بعد قبض البشارة من أربابها واطردني أي أشار عليا بدفع الرشوة وأخيرا أمدهم بالتوجه إلى افريقة وفعلا توجه الأولين يميناه بزوجة ابني وابنتي المذكورتين يسراه وحيث إن جميع ما تعده على بالظلم بسبب عن كونه أبنائي كانوا ارتكبوا جنایات سالفًا وذلك أمر لا يترتب عليه ضغط حقوقي مثل ما ضررو وذلك وبذلك نستلفت من جناب الحكومة الآن بإجراء البحث ضد المذكورين يميناه بواسطة من يظهر لكم دون خليفة السند المذكور والأذن بجلبهم ومحاكمتهم على ما صدر منهم⁽¹³⁾

لقد عانى السيد علي بن سديرة معاناة كبيرة فقد خسر أبناءه جميعا ولم يبق له من يحميه وعمد البعض إلى الانتقام منه من خلال الاعتداء على زوجة ابنه وابنته ولا شك أن بين هؤلاء وبين أبناءه خلافات ولم يكونوا ليقدموا على ما قاموا به لو أن أبناءه لا يزالون على قيد الحياة ويظهر من خلال ألقاب من ادعى عليهم علي بن سديرة أنهم جميعا من

قومه لا من الأعراب وهذا ما يؤكد أن الأعمال التي قاموا بها تندرج ضمن الثأر منه بعد أن أصبح عاجزا لكبره ولفقدانه السند المتمثل في أبناء.

هذا ما عاناه والد البشير الذي لم يكن ينظر له في ذلك الوقت التاريخ بصفة والد بطل بل كانوا ينتقمون منه لإقدام أبناء ربما على افتكاك أرزاقهم وإذا كان البعض يستغرب هذه الروايات فذلك مرده إلى أن النظرة للحدث تتغير بتغير الزمن والأحكام التي نطقتها مرتبطة بما نحمل من أفكار فنحن لا ننظر لأعمال أبطالنا الشعبيين إلا على أنها أعمال بطولية ولأنه خرج وتمرد على المستعمر فلا شك إن ما أقدم عليه البشير ومن معه كان له اثر سلبي وتأذى منه البعض كالقتل ونهب الأرزاق وغيرها من أعمال الصعلكة وهذه الأعمال انعكست بعد وفاته على أهله وما ذكره والده وان كان لا يعبر على كل الحقيقة فإنه فيه الكثير منها.

وهذا ربما يدفعنا إلى مراجعة بعض المسلمات التي نحملها على البشير بن سديرة وغيره من الصعاليك وعن تصرفاتهم وان كنت قد شككت في رواية العامل سعيد بن نصر حول ما ادعاه من أن البشير بن سديرة قد وعده بتسليم ثوار بن زيد مقابل العفو عليه لا لشيء بل لأن هذا العامل عرف بالمرآغة وعدم المصادقية وإذا كان لنا من نظره موضوعية لأعمال البشير بن سديرة دون تضخم لدوره بصفة بطلا وطنيا غير إننا لا يمكن أن نتناسى بعض سلبياتها اعتقادا منا بأن هذا البطل الشعبي لم يكن لديه ذلك الوعي.

بما يقدم عليه بل كان يتصرف بذهنية الصعاليك كالإغارة على أملاك الناس ونهبهم وما يؤكد فرضيتنا بأن البشير المذكور لم يكن لديه موقفا رافضا للاستعمار بشكل مطلق ولعله وجد نفسه في موقف لم يجسد له قبل فراره وما يؤكد فرضيتنا هو أنه حاول أن يدخل في مساومة مع السلطة ويحصل على بعض المكاسب مقابل توفيره الأمن لهذه السلطة وبل كان له الاستعداد والرغبة في تولي منصب خليفة في رسالة مؤرخة في 2 فيفري 1920 وموجهة إلى المقيم العام أي قبل وفاته بثلاث أشهر أبدى البشير رغبته في تولي منصب خليفة في عمل قفصة ويقول "إلي جناب السيد الوزير المقيم العام بتونس ونواحيها حرس الله كماله وبلغه في الدارين أماله أما بعد السلام عليكم ورحمته وبركاته وبعد نطلب من فضل جنابكم في تمهيد الراحة من جهة الدولة بسبب يطلب وظيف خليفة في عمل قفصة نبرد الجهة من جهة الفلاحة ومن جميع التشويش الذي وقع في عمل قفصة وأنا راني إذا كان الدولية العلية تعني عليه من جميع المطالب وأنا راني لم يوقع التشويش من جانب أبدا أو يبطل عليه القوميات وأنا راني لم نعمل حتى شيء بكون ونعرف جنابكم على خاطر من يوم الذي خلف جدي الأول وهو يخدم في الوظيفة عامل دائما وأبدا نطلب من جنابكم راني صاحب كتابة ونطلب من فضل الدولة تعميلا راحة ومنتج صحيح الذي تأمر به نقبله من كاتب الجواب خديمكم البشير بن علي بن محمد سديري الكريمي من فريق الودانية عمل قفصة"⁽¹⁴⁾

تعتبر هذه الرسالة عن رغبة البشير في إنهاء حالة الكر والفر بينه وبين الدولة ويؤكد انه يطلب الراحة ومدخول يضمن به حياته وهو قابل لكل ما تطلبه منه الدولة وكان طلبه لتولي الخلافة ربما لضمان عدم تعرضه للتتبع نتيجة أعماله لسابقة فيبدو أن البشير أحس بأن الدولة عاقدة العزم على القضاء عليه فارتأى أن يقدم عرضا ينقذ به نفسه وهو مطلب مشروع وقد اسند على قدرته لتوفير الراحة الذي هو الطلب الأساسي للدولة وعلى أن جده كان يخدم الدولة وهو مستعد للقيام بهذا الدور وإذا كانت السلطة مطلبا لدى الجميع لما لها من هالة وهي مغرية للجميع وخاصة في المجتمعات القبلية تعد الزعامة مطلبا للجميع فإذا كان هذا المتمرّد طمح في الزعامة فإن قاتله أقدم على فعلته طلبا لمنصب أقل وجاهة وهو المشيخة التي أصبحت مصدر رزق بعد أن كانت تكليف لان من يتولاها لا يستفيد منها ماديا بل كانت مسؤولية ملقاة على عاتقه .

أما أثار عملية اغتيال البشير بن سديرة على الطرف المقابل أي عائلة قاتله بالقاسم فلم تكن أقل مأساوية فقد أدت إلى مقتله بعد فترة وجيزة تاركا وراءه عائلة وأبناء فلم يترك لهم من زاد الدنيا شيئا بل تركهم في كفالة عمهم الذي أصيب في حادث مقتله وأصبح عاجزا حسب ادعاءه وهو ما دفعه للمطالبة بمجازته بدل أخيه الذي كانت الدولة وعدته بمكافئة . بوظيفة شيخ ولكنه توفي على يد أخ البشير المغدور وان كان صالح بن محمد بن عبد الله التليجاني أخ بالقاسم يرى أن واجب الدولة كفالة أبناء أخيه الذي ضحى بحياته من أجل خدمتها غير أننا نشكك في مدى التزام هذه الدولة وان عملية التصفية قد جوزيا بها العامل الذي كان العقل المدبر للحادثة أما بالقاسم فقد كان ضحية هذا لعامل وضحية طمعه وسوء تقديره لأنه لا يمكن أن يظفر بحياة هنيئة بإقدامه على قتل شخص كالبشير بن سديرة الذي ينتمي كعائلة قوية لا يمكن أن تغفر مقتل أحد أبناءها فقد اعتقد بلقاسم ومن بعده أخيه صالح بأن لهذه الدولة التزام تجاه من تستخدمهم في مكائدها بل إنهم بالنسبة لها مجرد وسائل تحقق بها أغراضها وتعتبر المبلغ الذي دفعته بلقاسم المذكور كافيا ومجريا فالرسالة التي أرسلها صالح للوزير الأكبر تعبير على مدى تردّي وضعه المادي حيث أصبح يكفل عائلتين وعائلته وعائلة أخيه ومن جهة أخرى يعبر عن بلاهته لأنه كما ذكرنا يعتقد بان الدولة وفيه لمن يقدمون لها خدمات ويقول صالح فرسالته بعد التحية < فالمعرف به جنابكم هو أن والدي كان تولي شيخا على عرش أولاد تليجان مدة طويلة ولم يرتكب ما يخل بخدمته ولما عجز قدم استعفاءه وكنا نحن أولاده آنذاك صغار السن وعندما بلغنا مبالغ الرجال صرنا نسعى فيما يكون نجاحنا وما يقربنا لجناب الدولة حيث أن عائلتنا في خدمتها ولا يخفي جنابكم انه في السنين الفارطة كان قام النفر أعلاه (البشير بن سديرة) وتعاطى قطع الطرقات والنهب وحرير راحة السكان وطالما وقع البحث عليه فلم يقع الظفر به وان جناب الدول أصدرت الإذن بقتله ومن يقتله تجاز له بالمال ووظيفة المشيخة وكان العامل آنذاك انتخب أخي بلقاسم لما فيه من المقدرة على قتل هذا اللص وفعلا قتله وراح منه كافة الأهالي وكان جناب الدولة جازته بجانب من المال ووعدته بالوظيفة غير انه في أثناء ذلك مات أخي فتتيللا بقهوة بلد قفصة وقد أصبحت

بجراحات بليغة حيث كنت معه وقت الصرخ عليه و بموجب ذلك أبطلت يدي وصرت عاجزا عن الخدمة مع فقري وشدة احتياجي وكان أخي القتييل قد ترك لي زوجة وأبناء مع كبر عائلتي وعجزت عن مقاومتهم وخشيت عليهم من الإهمال وحيث كان سبب قتل أخي هو طاعته في جناب الدولة بقتله اللص المذكور نطلب من مراجعكم استلقت أنظاركم نحو هاته العائلة التي منها عائلة القتييل أما بإعانتها لنا بجانب من المال لنتمتعشون منه أو بمنحي وظيف مشيخة أولاد شريط و أولاد تليجان التي هي الآن شاغرة جزاء لما فعله أخي وتسبب عنه قتله كما أصبحت لأجله بجراحات بليغة حتى صرت بسبب ذلك ساقطا كما تشهد بذلك الشهادات الطبية نطلب من مراجعكم قبول مطلب والأمر وطييد ما أني وقفت أمامكم متطفلا على أعتابكم راغبا إتمام مطلب و جنابكم سيديد النظر ودمتم بخير وسلام فقير ربه صالح بن محمد بن عبد الله التليجاني .كتب في أوت⁽¹⁵⁾ 1922 لعل بلقاسم الأقرع المذكور قد خلف وراءه ارث ثقيلا تركه لأخيه الذي كما ذكر أصيب أثناء مقتله وهو الذي كان يقوم بعمله مرافقته من أجل حمايته وترك له عائلة كان مجبرا على إعانتها لأنه كفيها الوحيد هذه العائلة التي لا شك ظلت تعاني آثار ما فعله والدها متحملتا الفقر واليتم والخصاصة بالإضافة إلى الإدانة المستمرة والاحتقار الدائم من قبل الناس.

4 - النتائج البعيدة لحركة تمرد البشير بن سديرة :

لا شك أن حركة البشير بن سديرة وغيره من ثوار الجنوب التونسي كثورة الودارثة 1915 و ثورة مشايخ بن زيد 1917 و هو ما يطلق عليها جميعا بثورة الجنوب يعبر عن إرادة الرفض للواقع الاستعماري البغيض الذي خيم على البلاد مستنزفا ثروتها و مستخدما ابنائها في تنفيذ سياسته الاستعمارية حول العالم ولعل من أبرز أسبابها كما ذكرنا هي سياسة التجديد حيث نقول بعض المصادر أن عدد المجندين التونسيين بلغ 90 ألف ورغم الاحتياطات التي كانت تتخذ للتحري حول المجندين خوفا من تمردهم فإن ذلك لم يمنع أثناء هذه الفترة من تمرد المئات منهم .

السؤال يطرح نفسه هل كانت هذه الحركة التمردية الثورية في الجنوب التونسي معزولة عن ما سبقها و ما لحقها أي هل هي امتداد لماضي هذه المنطقة المعروفة بنزعتها التمردية و الرفضة لكافة أشكال السلطة و التسلط و لعل الدارس لتاريخ هذه المنطقة يدرك جيدا أن بلاد العمامة و بن زيد و الودارثة و وورغمة عرفت على مدى العصور نوعا من الاستقلالية حيث أن إدارتها غير مباشرة أي على طريق قيادها و مشايخها الذين كانوا ينتخبون ليكون صلة الوصل بين الحكومة المركزية و الأهالي أي أن الحكومات لم تكن تمارس سلطتها بشكل مباشر حتى مع بداية سيطرة القوات الفرنسية و محاولتها الهيمنة على مقدرات البلاد وان عمدت في البداية لإخضاع هؤلاء البدو و توطنهم من أجل أحكام السيطرة عليها غير أنها لم تعمل على إلغاء الهياكل التقليدية المتمثلة في المشيخات بل حاولت تطويع هذا الجهاز الإداري الذي ورثته و كان لمنطقة الهمامة مساهمة فعالة في التصدي لهذا العدو القادم من وراء البحار و نظرت إليه بصفته عدو الدين و الوطن في تلك فترة التي لم تكن فيها رؤية واضحة للوطنية و كانت مقاومة الهمامة لهذه القوات ملحوظة غير أن سوء التنظيم و حجم القوات التي غزت البلاد دفعت بالعديد من قبائل الجنوب إلى الهجرة إلى طرابلس بناء عن معتقدا دينيا يدعو إلى الهجرة من البلاد التي يحتلها " الكافر " و

لكن سلطة الحماية عملت على إرجاع هذه القبائل لأنه لبس من مصلحتها حكم ارض بدون أهلها فهي لم تأتي للنزهة بل لاستغلال هؤلاء الأهالي عبر سياسة ضريبة قاسية تعمل على تحقيق أكبر قدر من المداخيل لهذا المستعمر الذي استقدم آلاف الجنود من أجل استعمار واستغلال البلاد و لا ننسى المساهمات الفعالة لأهل هذه المنطقة بلاد الهمامة في ثورة 1952 – 1956 و ما قدمته من أبطال و شهداء في معركة التحرير و لذلك يمكننا اعتبار ثورة بن سديرة ورفاقه بداية الشرارة في مقاومة المحتل الغاصب هذه الشرارة التي ضلت تحت الرماد و عندما اكتملت شروط الثورة انطلقت بقوة و حماسة و كانت سيرة بن سديرة و غيره من الجيل الأول أكبر حافز لمن جاؤوا من بعده لأن عموم الناس اعتبروا تحركات العصاة ضرب من ضروب الجهاد ضد الفرنسيين النصاري و من سار في ركبهم من المسلمين و بعبارة مجملية جسد هؤلاء الرجال الرفض و المناهضة و من ثم المقاومة الأهلية آنذاك بالرغم من قسوة الظروف و يمكننا القول أن البطل كما ضبطت ملامحه الرواية الشعبية إنما هو رمز أخرجته الجماعة ليخوض بدلا منها المعارك التي تعجز هي عن خوضها و ليحقق لها الانتصارات على القوى الخارقة ما يحدث التكامل و التنفيس عن الجماعة كلها.

إن جهود هذه العناصر التي انصبت عن إرباك السلطة الاستعمارية و دون إتيان بأعمال مخلة بقيم مجتمعهم الريفي و أعراضه، قد جعلت العامة يعجبوا بشمائلهم و ترى فيهم نماذج الرجولة الكاملة للقيم النبيلة و التي ليس أقلها الشجاعة الآباء و احترام المرأة و الحذب عن المعدمين الخ .. هل كانوا فعلا كما صورتهم الرواية الشعبية ؟ (16)

هذه الصورة الناصعة التي ترسمها المخيلة الشعبية جعلت منهم منارة للأجيال اللاحقة و لذلك نلاحظ المشاركة المكثفة لأبناء هذه المنطقة الهمامة و بن زيد و عموم الجنوب التونسي و لا شك هذا ما يدفع بأبناء هذه المنطقة لاعتبار أن هذه المنطقة هي التي حررت البلاد التونسية و ربما هذا الاعتقاد المبالغ فيه لأن المقاومة المسلحة في اعتقادنا إذا لم تكن مدفوعة بالنضال السياسي و النقابي الاجتماعي لا يمكن أن تحقق أهدافها و لكننا من ناحية أخرى نستهن إغفال نظالات هذه المنطقة من قبل المؤرخين الرسميين الذين دونوا التاريخ الرسمي للبلاد التونسية فهم يملكون على نظالات هذه المنطقة مرور الكرام و هي مفارقة كبيرة و ربما هذا ما دفع مؤرخ تونسي معروف كالهادي التيمومي للقول بان مرد ذلك يعود " إلى معاداة ساسة المدن و مثقفها للفلاحين بزعم أن إزرء هؤلاء الفلاحين و كراهيتهم لهم حيلة كامنة لديهم و ليس مجرد مواقف عابرة و يطالب بتحرير الثقافة و التاريخ التونسي لا من رواسب الفكر الاستعماري فحسب بل كذلك من النظرة المدينية (نسبت إلى المدينة) " (17)

لعل التيمومي أصاب إلى حد بعيد في هذه الرؤية و لأنه من أوائل من كتبوا حول تاريخ الانتفاضات الفلاحية ربما مرد ذلك لانتمائه إلى وسط ريفي رافضا لهيمنة الرؤية المدينية للتاريخ و تأتي مساهمات فتحي ليسير في هذا الإطار حيث كما ذكرنا يعد أول من كتب حول الصعلكة الشريفة في الجنوب التونسي .

ويعتبر البعض أن الاهتمام بسيرة هؤلاء الأبطال يعد من واجب الوفاء " إن واجب الوفاء والوفاق يقتضي – أقل ما يقتضي – إحياء ذكر هؤلاء المنسيين الذين ضحوا و ماتوا و كان لهم فضل الريادة في شق عصا الطاعة أمام الطاغية و لم يكونوا ينتظرون جزاء و لا شكور ماتوا مرابطين في الجبال مع السوام و سيقوا إلى ساحات الإعدام و البسمة تعلوا جباههم و شردوا و طوحت بهم المنافي فالعمل على جمع هذه السير المثالية و تبسيطها و نشرها و واستلهاها تأصيلا للذات و تجديرا للكيان ، و لربط بأفضل تقاليد شعبنا و نشد النجاة من هذا الإحباط العميم " (18)

إن كنا لا نختلف مع الآراء السابقة حول إعادة كتابة هذا التاريخ المنسي لكننا نرى أن هذا التاريخ هو حلقة من حلقات تاريخنا الوطني الذي يجب إعادة كتابته برؤية أكثر موضوعية و حياد دون المبالغة و ذلك من أجل إنتاج تاريخ مغاير لما درسناه مستفيدين من آلاف الوثائق التي لا تزال مكدسة في الأرشيف الوطنية و الأجنبية و أن استخدام المادة الأرشيفية تمكننا من كشف العديد من الحقائق الغائبة و من تصحيح بعض الروايات الشفاهية التي لفها الغموض و المبالغة من أجل رؤية موضوعية لتاريخنا خالية من المبالغة و لكنها في الآن ذاته تقدم الجديد و هي محاولة لكشف مجريات هذا التاريخ كما حدث دون توظيفه سياسيا لأن السياسة مفسدة كبرى للتاريخ لأنها قراءة انتقائية لا تذكر إلى ما يخدمها و إن كانا نعيب عن من سبقنا في هذا المجال و هم مؤرخو الاستعمار و مؤرخو الدولة الرسمية فإننا لا يمكن أن نسقط في نفس الخطيئة بحيث أننا نجد تاريخنا متناسين الجانب الخفي و السلبي منه و تعد حادثه مقتل البشير بن سديرة وجهين لهذا التاريخ فهذا البطل الذي ناضل في سبيل وطنه و يفتخر به أبناء الهامة و الجنوب و التونسيين عموما فان قاتله بالقاسم التليجاني يعد نموذجا للخونة الذين جندتهم السلطات الاستعمارية للقضاء هؤلاء الثوار يعد عبئا علي أهله . فلا بد من النظر لصورة البطل مقترنة بما تعرض له إخوته و والده و أخته و سائر أفراد عائلته من أذى و تنكيل من أهله بالذات أي من عرشه لعل ما قام به أفراد قبيلته الذين أغرتهم السلطات الاستعمارية بالمال من أجل القضاء على أبين عمهم يعبر عن الصورة السلبية لهذا التاريخ او الوجه الآخر القفي

إن هذه القراءة الموضوعية تعد السبيل الوحيد لدراسة تاريخنا دون إصدار الأحكام و بالاعتماد علي الوثائق دون تسييس للتاريخ فلا تاريخ بدون وثيقة و إن كان البعض يعتبر هذه المقولة كلاسيكية غير أننا نعتبرها مسلمة على كل مؤرخ جاد الالتزام بها فإذا كانت الوثيقة مقدسة فان الرأي مجاني و على كل مؤرخ أن يبرز وثائقه و له الحق في إبداء رأيه فيها .

الاحالات والهوامش :

1. فتحي ليسير: من الصلعة الشريفة إلى البطولة الوطنية كلية الآداب صفاقس 1999، ص7.

2. فتحي ليسير: المصدر نفسه ص9.

3. فتحي ليسير: المصدر نفسه ص9.

4. الطاهر الهمامي البشير بن سديرة حقائق عدد 8 57 مارس 1985.
5. محمد المرزوقي دماء على الحدود الدار العربية للكتاب تونس ليبيا الطبعة الأولى 1974 ص150.
6. عبد المجيد الجمل، خفايا تمرد التونسيين بالجيش الفرنسي، الدغباجي نموذجاً، (1915 - 1922) محاضرة مرقونة شارك بها ملتقى الطاهر الأسود لتاريخ الحركة التونسية المتقى التاسع مارس 2005 الذي ينضمه نادي البحوث والدراسات بالحامة ص4
7. أوت سلسلة كرتون 15/30 550 ملف 1994 وثيقة عدد 86
8. أوت سلسلة كرتونة 100 ملف 4/24 وثيقة عدد 14
9. أوت سلسلة كوتون 10 ملف 4/24 وثيقة عدد 14
10. محمد المرزوقي، دماء على الحدود مصدر سابق
11. أوت سلسلة كرتون 1208 1/1
12. أوت سلسلة كرتون 208 1/1 وثيقة عدد 100
13. أوت سلسلة كرتونة 208 وثيقة عدد 154
14. أوت سلسلة كرتونة 208 وثيقة عدد 72
15. أوت سلسلة كرتونة 100 ملف 24 وثيقة عدد 24
16. فتحي ليسير : الصلعة الشريفة المرجع السابق الصفحة 41
17. الهادي التيمومي : انتفاضات الفلاحين في تونس المعاصرة (1906) تونس بيت الحكمة 1913 الصفحة 17
18. الطاهر الهمامي : البشير بن سديرة مرجع سابق